قراءة في ميثولوجيا أستراليا السوداء

في أستراليا لم تبدأ المخيّلة المبدعة مع بدء الاستيطان الأوروبّي، كما قد يبدو للبعض، «بل إن هذه المخيّلة تعود في الزّمن إلى ما يزيد على الأربعين ألف عام، عندما قدمت موجات بشرية من الشمال هم الأبوريجينيون السود TheAborigines (سكان أستراليا الأصليون) الذين أنشأوا لهم أدباً خاصاً هو ككل أدب بدائي شفوي يعبّر عنه بالغناء والرقص ورواية الأساطير. إلاّ أنّ هذه المخيّلة لم ترق للأوروبيين المستعمرين، فقد رأوا فيهم قوماً متوحّشين دون مستوى البشر، فبقي أدبهم وفنّهم وحتى تقنيتهم إلى وقت قصير، مخبّأة لم تستطع العنجهية الأوروبيّة المتعصّبة، في حينه، رصدها.

يعتقد الابوريجينيون أن أجدادهم موجودون فوق هذه الأرض منذ «زمن الحلم» الذي بدأ عندما كانوا أرواحاً، خليطاً من بشر وآلهة، أتوا إلى هذا الوجود ومن خلال أعمالهم ورحلاتهم خلقوا الأرض والسّماء والبحار والأنهار وكلّ ما عليها من مخلوقات. وهم لذلك يمتلكون تراثاً غنيّاً من الأساطير، فمن كل مكان ومن فوق كل بقعة أرض أسترالية تطالعنا مجموعة مثيرة منها. بعض هذه الأساطير يروي مآثر الأرواح، مقدس فوق حدود فهمنا المعاصر، وبعض هو تسجيلات لأحداث مغرقة في القدم، والبعض الآخر حكايات رمزية تستعرض أنماطاً من ثقافتهم وتعاليمهم الدينية وتقاليدهم المتوارثة منذ زمن الحلم. تحكي هذه الأساطير تصورهم لكيفية نشوء العالم، وتنقل رؤاهم للعالم الميتافيزيقي، كما أنّها تقدم تفسيرات للاختلاف الحاصل في تشكيلات المكان الجيولوجية. وتعلل ظاهرة التنوّع والاختلاف في طبائع وتصرفات الحيوان، وباختصار فإن الثقافة الابوريجينية هي ترجيع صدى لمكنونات البيئة بأرضها ونباتها وحيوانها في هذه القارة المنعزلة القديمة. لذلك فإنهم يعتقدون أنّ الأرض تمتلك ناسها الذين يحيون فوقها، وهي بدورها تمتلك الدلالة التي إن عرفوا كيف يقرأونها استطاعوا أن يتعرّفوا على حكاية تكوينهم واستدلّوا بواسطتها على الطرق المؤدية إلى السعادة في هذه الحياة. كما انّ في قصصهم هذه إعلاء للقيم النبيلة ونمّاً للرذائل. وهي بالتالي تطرح السؤال الأزلي الذي كان ولا يزال يدور في خَلَد الإنسانية حول مسألة الموت والخلق والانبعاث. تعرف هذه الأساطير بزمن الحلم The Dream time.

وزمن الحلم الأبوريجيني قصص ينطبق عليها ما ينطبق على الميثولوجيا من قواعد وتعريفات إذا ما اعتمدنا الجذر الأصلي للكلمة اليونانية mythos، والتي تعني قصصاً ذات مواضيع قديمة بدائيّة سخرت الحقائق النفسية والغيبيّة لخدمة معتقدات ثقافية ومسلكيّة أخلاقيّة. وحكايات زمن الحلم هي ميثولوجيا عندما نعني بالميثولوجيا حالة إدراك ومعايشة وتفسير للعلاقات بين العالم المعاش والآخر المغيّب، على اعتبار أنّ هذه النماذج وهذه القدرات سابقة على خلق العالم.

و«زمن الحلم» الذي تعود إليه نشأة النظم الإجتماعية يمكن وصفه بأنّه تلك الحقبة السحيقة في القدم التي حدثت للابوريجينيين قبل بدء الزمن. في تلك الحقبة كانت القوى الغيبيّة (نماذج الأساطير) تتخلّل الفضاء اللامتناهي وتعيش أحلامها بالمطلق بكثافة وقوّة خارج حدود ما يمكن للكائن البشري أن يخبره. لقد حفلت هذه المشاهد الدرامية بكل ما يمكن للذهن البشري أن يتصوّره من علاقات فيزيائيّة ونفسية شاملة كلّ تواصل أو علاقة. ويمكن مقارنة الحدث الذي تصفه الأسطورة في زمن الحلم والتحوّلات التي يمر بها الأوّلون بما نخبره في أحلامنا. فنحن في أحلامنا عادة نتخطّى حدود الزّمان والمكان، فقد يرى واحدنا نفسه يسبح في الفضاء في عالم خارج حدود المعقول، حيث يلتقي الشيء وضده، وحيث تتداخل الأشكال في مشهد غرائبي متقلّب مختلف، فقد نرى أنفسنا نمسخ إلى كائن ما، ثم نعاود الرجوع إلى ما نحن عليه، دون اعتبار لمنطقيّة الأشياء. بمعنى أننا في أحلامنا نصوغ من مكنونات النفس رموزاً على هيئة إنسان أو حيوان أو نبات. ففي زمن الحلم كان الكائن يتقلّب في أشكال مختلفة، فهو إنسان مرّة وحيوان مرَّة أخرى، وشجرة أو نهر في ثالثة، إلى أن يصل به الأمر إلى حقبة خلق العالم، عندها يغور في عمق الأرض أو جلد السماء. من هنا جاء اعتقادهم أنّ تصرفات المرء بكل ما فيها من عواطف وانفعالات وتقلّبات نفسية متمثلة في تصرفات الحيوان العيانيّة.

وقد استوحى الأبوريجينيون ما حصل لهم من تحوّل عبر أجيال وأجيال من مشاهداتهم للتنوّع الحاصل في البيئة واختلاف الطبيعة في أشكالها من مكان إلى آخر. ففي عمر التكوين الأرضي القديم لم تكن وظيفة الأرض مجرّد خلق وإطعام وحماية، بل كانت أُمّاً تعلّم وهادية ترشد، تهمس في إشارات طبيعية صور حكمتها السريّة لعمليّة تعاضد العقل والجسم والنفس والروح وتكافلها مع بعضها البعض في نسيج موحّد.

تختلف الميثولوجيا الابوريجينية عن الأخرى الإغريقيّة في أنّ هذه الأخيرة ترى لأبطالها (الآلهة) تأثيراً كونيّاً شاملاً مصحوباً بمسارات وتكوين الكواكب الفضائية. وقد عمّمت هذه الرؤيا حتى أمست جزءاً من اللاوعي الجمعي الكوني. في حين كانت رؤيا الأبوريجينيين الأوائل تقتصر على قطعة محدّدة من الأرض تحكي تشكيلاتها وملامحها. فهم لا يعتبرون أنّ رؤاهم الحسيّة شيء ثابت ومعمّم في الوعي الكلّي الكوني. لذا فإنّ احتفالاتهم كانت تعكس صوراً لنماذج كثيرة ومتنوّعة تختلف باختلاف المكان الذي يقام به الاحتفال ويبقى تأثيرها على مكان وأرض محددة دون أن يروا في مفهومهم الوجداني للوجود شيئاً ثابتاً وعالمياً وذا رؤيا

شمولية.

ولكي يردع الابوريجنيون ما يمكن أن تمور به النفس البشرية من أذى لنفسها أو لمجتمعها، فقد اعتبرت تعاليمهم أن قوى الشر كالأنانيّة والبغض والتطرّف والجشع وجميع الصفات الهدّامة، نواقص منبوذة في المجتمع. وقد عبّروا عن ذلك بكثرة في شعائرهم واحتفالاتهم الدينية، سواء كان ذلك بالرّقص أو بالرسم والألوان. وقوانين زمن الحلم تعتمد مبدأ التناغم والتوازن بين قوى الطبيعة المتقابلة. وهذا أمر محتم وأصيل في دنيا الوجود. هذه القوى كمثل التنافر والتجاذب، التكامل والفردانية، الانقباض والانبساط، هي صفات موجودة داخل النفس البشرية وفي علاقات الناس بين بعضها البعض. ويتفق هذا المفهوم مع كثير مما جاءت به الثقافات القديمة الأخرى، حيث أدرجت هذه المفاهيم والقيم كقوانين عالمية منظمة لدورة الحياة. وهكذا عندما تتخطى إحدى العلائق ما هو مرسوم في العالم الطبيعي أو الغيبي، فإن القوى الرئيسية لإنماء الخلق تتوقف أو تمنع عن مساندة البشر والطبيعة. فينشأ عن ذلك خلل يؤدي إلى انعدام التناسق والتكامل، فيعم الخراب.

من هذا المعتقد، حرص الابوريجينيون لأجيال وأجيال على ترسيخ الروابط العائلية في نفوس أبنائهم إلى جانب إنماء حسّ المسؤولية وتعليمهم احترام المعتقدات الغيبيّة وتقديس كبير للأرض. ووسّعوا الدائرة العائلية لتشمل كل ذوي القرابة، ثم امتدّت لتشمل الطبيعة ككل : الطوطم، الأرواح القديمة... وفي حين يلجأ المرء في مجتمعاتنا المتمدّنة إلى الخلف والتملّك والإرث والسلالة كطريقة لضمان استمراريّته ومقاومة الفناء، فإنّ المجتمع الأبوريجيني تحوّل إلى ثقافة غيبيّة كليّة لتحقيق هذه الاستمراريّة، حيث أنّ كل فرد هو كلٌّ متكامل، وفي نفس الوقت عضو مكمّلٌ ومستمر في المجموعة. لا يعني هذا أنّ الابوريجينيين قد تنكّروا لما في النفس البشرية من خصائص فردية كحب التملّك والحيازة والقوّة الشخصية والخلود الفردي، بل عرفوها وشرعوا لها «في زمن الحلم»، إلاّ أنّ الحسّ الكلّي بقي قلب ثقافتهم، كل فرد أولاً وأخيراً هو جزء أصيل من الجماعة، فالقريب أو النّسيب إنما هو للشخص كعضو منه كساعده أو رجله... وهذا ما يفسّر غياب ضمير التملّك من كلّ اللغات الأبوريجينية، فمثلاً عند التعبير عن كلمة عمّي أو خالي يقال عم لي أو خال لي. إن حسّ الإنتماء إلى الجماعة قوي طاغ في الوجدان الأبوريجيني، حتى إنّه في فترة العزل التي تتم عند البلوغ يعتري الفرد المعزول مشاعر مدمرة من الإحساس بالنّقص، ممّا يؤدي به إلى المرض، وفي بعض الحالات الموت.

وممّا يثير الإنتباه في حكايات زمن الحلم هذه، العلاقة المعقّدة والمتلازمة ولكن غير المرئيّة القائمة بين الرّوح والجسد. وتولي شعائرهم كبير اهتمام لانفصالهما في الموت. الموت الذي هو فقدان تام للوعي والذي يتبعه انهيار لفاعلية الجسم. وتعبّر شعائرهم عن هذا الحدث في طقوس تمثّل نظرتهم للموت والبعث، يُفهم منها أنّه – أي الموت – أمرٌ يجب أن نتقبّله ونختبره، لأنّه مرحلة ضرورية لاكتمال دورة الحياة. وهو أمرٌ نسعى إليه، سواء عن وعي أو عن غير وعي

منّا..

لقد اهتم الرجال في إقامة أشكال متعددة من الإحتفالات تتضمّن طقوس الموت وتجربة التحوّل العميقة اللاواعية. في حين أقامت النساء احتفالاتهن في المقاطع المهمّة من حياتهن كزمن بدء الحيض وانقطاعه، والحدث الأكبر الولادة. إنّ ممارسة هذه الاحتفالات التي تعبّر عن فترات التحوّل في عمر الإنسان ما هي إلاّ رموز وعلامات من علامات الموت والانبعاث يختبرها الإنسان في كلّ مرحلة من مراحل عمره، فتزداد بذلك معرفته بأسرار الحياة، وهذا أمر تشترك فيه كل المجتمعات البدائية.

وحسب المعتقد الابوريجيني فإن كلّ قوّة وكل جسم وكلّ مخلوق على هذه الأرض يمتلك ذكاءه الخاص وروحه ولغته المميزة، سواء كان ذا حياة أو جماد، ممكن الإدراك أو غير ممكنه. كل شيء في هذا الكون يملك، كأي إنسان، وعياً غير مرئي كمثل ما يملك شكله الخارجي. وتعاملهم مع هذا الواقع أمرٌ أساسي وحقيقة محتمة في كل الأساطير.[1]

سيتوقف هذا البحث عند ثلاث من أهم أساطير زمن الحلم. أوّلها «أسطورة الخلق» وفيها كشف عن معتقدهم الميتافيزيقي وتصوّرهم لمسألة الإنبعاث.

تقول الأسطورة إن الأرض وما عليها كان نائماً هاجعاً، إلى أن جاء زمن همست به الرّوح الكبرى «بيامي»، لآلهة الشمس «يهي»، أن تنزل من عليائها وتوقظ الطبيعة من سباتها .. بدأت «يهي» رحلتها بعيداً في الأرض، من الغرب إلى الشرق، إلى الشمال، إلى الجنوب، وفي كل مكان وطأته كانت الأرض تقفز متحفّزة، تنبثق الأعشاب والأكمات والأشجار والأزهار متطاولة نحو مصدر النّور. ظلّت «يهي» سائرة حتى اكتست الأرض كلّها بالأخضر. لقد اكتمل أوّل عمل مفرح لها، فرقدت إلهة الشمس تأخذ قسطاً من الرّاحة فوق سهول نولاربور. سرّ «بيامي» بما فعلته الشمس وناشدها أن تكمل صنيعها فتذهب بضوئها إلى المغاور والكهوف المعتمة. نهضت «يهي» وشرعت في رحلتها إلى الأمكنة المعتمة تحت سطح الأرض، لم يكن هنالك أيّة بذور لتنمو وتمسي حياة من جرّاء ملمسها، بل مجرّد ظلال كثيفة متوارية خلف الصخور. حاولت الأرواح الشريرة أن تبقي على الموات في الكهوف، إلاّ انّ الظلال أمسَتْ أقلّ كثافة والأشكال المعتمة أخذت بالتململ. صفقت أجنحة شفافة، إرتفعت أجسامٌ بأرجل طويلة، ألوان معدنية بدأت تتراءى، وللحال رأت «يهي» نفسها محاطة بحوريات تزحف، تطَّير، تدب، طالعة من كلّ زاوية وتتقدم متزاحمة صوبها، ثم تبعتها خارجة إلى العالم، إلى الضوء، إلى معانقة العشب المنتظر وأوراق الشجر والأزهار. تلاشت أصوات الشر وضاع صداها عبثاً إزاء قوّة الحياة الناهضة. وفي خطوة لاحقة انطلقت «يهي» إلى الكهوف في بطون الجبال، حيث الجليد الأزلي.

خطَت «يهي» فوق التلال فارشة ظلّها فوق القمم، ناثرة أشعتها فوق الجليد، ثم تقدمت عميقاً في قلب المغاور فأرعشتها البرودة المنبعثة من الجليد المتدلّي من السقوف والحيطان، جليد يتكدّس سميكاً لا يستسلم، بحيرات مجمدة في نطاق من الثلج الكثيف المظلم... جبال الثلج أمست ماءً صافياً، وتحركت شعلة الحياة من قلب الموات. حركة تماوج طفيفة بدت على سطح

الجليد ثم بدأت تتكاثر وتذهب بعيداً في العمق، كتل من الجليد أخذت تطفو نحو السطح ثم ما لبثت أن تلاشت، أذابت نفسها في فرح المياه الخارجة من الأسر، أجسام غامضة خفقت وسبحت صوب السطح. فاضت البحيرة بمائها فاندفعت من فوهة الكهف منطلقة دفّاقة إلى منحدرات الجبال، وزعت المياه على العطاش وأكملت طريقها صوب البحر، وفي انطلاقها انتحت الزواحف جانباً لتبحث لنفسها عن مآوٍ جديدة بين الأعشاب والصخور، في حين قفزت الأسماك سعيدة في قلب المياه المتدفقة.

وإذ أكملت «يهي» عملها أخذت «بيامي» من يده ونادت بصوت ذهبي ساطع : كل الأشياء التي بعثتها للحياة هي بلاد بيامي. إنها ملكه إلى الأبد ليتمتّع بها، بيامي هو الرّوح الكبرى وهو سوف يحميكم ويصغي إلى كل ما تطلبون، لقد شارفت مهمتي على الإنتهاء، لذا أريدكم أن تصغوا لما سوف أقول.

إنني سأرسل إليكم فصولاً من الصيف والشتاء، الصيف بدفئه لإنضاج فاكهتكم وجعلها صالحة للأكل، والشتاء للنّوم، وفيه تجوب الرياح أنحاء العالم وتأخذ بعيداً كلَّ ما نبذه الصيف. كما أنّ هنالك تغييرات أخرى سوف تحصل لكم أيتها المخلوقات الجميلة العزيزة على قلبي. أمّا الآن فقد حان لي أن أترككم وأعيش بعيداً عالياً في السماء، وعندما تموتون فإن أرواحكم سوف تأتي لتعيش معي، أما أجسادكم فسوف تبقى هنا في الأرض.

ارتفعت «يهي» عن الأرض وتدلّت ككرة من الضوء في كبد السماء ثم غاصت على مهل خلف التلال الغربية. حزنت المخلوقات جميعها وملأ الخوف قلوبها، فقد عمّ العالم الظلام مرة ثانية برحيل يهي.

مرّت ساعات طويلة وغلب المخلوقات النّعاس، فخفّف النوم من حدّة خوفها وحزنها. فجأة كانت هنالك زقزقة طيور، فقد رأى هؤلاء الذين ظلوا صحاة، إشعاعات النّور من الشرق، أمست الزقزقات أشدّ وضوحاً، طيور أخرى انضمت إلى الجوقة وكانت كلّها تحيي «يهي» التي طلعت بهية جميلة وفاضت على السهول بضوئها الصباحي الزاهي. واحدة إثر أخرى استيقظت الطيور والحيوانات جميعها، وأمسى الأمر يتكرّر يوماً إثر يوم. فهدأ قلقُهم وانفرجت كربتهم، فقد علموا أن الضّوء سيأتيهم كل يوم، سيكون هنالك دائماً شروق وغروب، وعلموا أنّ النهار للّهو والعمل، فيما الليل مخصّصٌ للراحة والنّوم. كانت روح النهر وروح البحيرة أكثر المخلوقات حزناً على غياب «يهي»، فقد حرمتا دفئها وحنانها فقامتا تجاهدان قدر المستطاع حتى لحقتا بها إلى السماء.

ابتسمت لهما«يهي» فذابتا في نقاط من الماء ونزلتا ثانية على الأرض بشكل ندى وأمطار تنعش الأزهار والنبات وتخلق حياة جديدة.

بقي هنالك عمل واحد لم يُنجز، فساعات اللّيل الشديدة الظلام كانت تسبّب الرعب لبعض المخلوقات، لذلك أرسلت «يهي» نجمة الصبح لترافقها عند قدومها كلّ يوم، ثم أحزنها أن ترى النجمة وحيدة مستوحشة فأعطتها القمر «باهلو» زوجاً يؤنسها، زفرة فرح واكتفاء ارتفعت من الأرض عندما أبحر القمر بجلاله عبر السّماء مولداً حوريات من النجوم، وصانعاً مجداً جديداً في السماء.

لا تؤكد الأسطورة بأيّ شكل وجدت عليه الحيوانات في بدء تكوينها، فبعض التكهّنات تقول بأنها كانت على هيئة البشر، وبعضها الآخر يقول إنها كانت على أشكال أخرى غير مألوفة. إلاّ أنّ أمراً واحداً كان مؤكداً، وهو أنّ هذه الحيوانات بعد وقت من الزّمن ملّت الأشكال التي منحها إيّاها «بيامي»، فهؤلاء الذين كانوا يعيشون في المياه فضّلوا عيش البر، وأولئك الذين كانوا يدبون على الأرض رغبوا في أن يكونوا منطلقين محلّقين في الفضاء، اكتأبت المخلوقات واختفت صيحات الفرح من الأجواء، وإذ تطلعت «يهي» من عليائها عرفت أنّ حزناً ثقيلاً يخيم على الأرض، فنزلت على الأرض ووقفت في سهل «نولاربور» فأسرعت الحيوانات نحوها أفواجاً أفواجاً قادمة من كلّ مكان ومن جميع الجهات ترفع لها شكواها :

– كفى، كفى، لا أستطيع أن أسمع وأفهم ما تقولون إذا ما تكلمتم دفعة واحدة. ثم أشارت إلى «ألومبات»[٢] الذي يمتلك جسداً يهرب به إلى الأماكن الظليلة، حيث يستطيع أن يختبئ عن أعيُن الآخرين. ثم تتبعه الكانغارو الذي أراد أرجلاً قوية تمكّنه من القفز وذَنَباً ليحفظ له توازنه. وأراد الخفاش أجنحة تساعده على الطيران في الفضاء كالطيور، وطلبت السلحفاة أرجلاً تساعدها على السير، فقد أتعبها الزّحف على البطن. أما خلد الماء المسكين فلم يستطع أن يقر رأيه على شيء محدّد، وانتهى بأن طلب أجزاء متفرّقة من عدّة حيوانات. سُرّت «يهي» لغرابة أشكال الحيوانات وتنوّعها، ولكنها أدركت أنّها بتغييرها أشكالها لن تضمن لها السعادة. فالبومة التي طلبت عينين أكثر اتّساعاً وأشدّ لمعاناً، عليها أن تختبئ في الأماكن المظلمة نهاراً وتسعى لاصطياد زادها فقط أثناء الليل، والحشرات القضيبية عليها أن تبقى لساعات دون أدنى حركة على الغصن حتى لتكاد تصبح جزءاً منه. وعلى البجعة أن تتعلم الوقوف في الماء جامدة كقصبة على رجليها الطويلتين قبل أن تتمكن من الفوز بسمكة لامبالية. لم تبال بالأمر فهي تعرف أن منحهم ما يطلبون لن يجلب لهم السّعادة، وتعلم أيضاً أنّ سعيهم الدائم في سبيل العيش سوف يشغلهم ويبعدهم عنها. هي تعرف أنّ بعض التغييرات قد تحصل لهم فجأة، أو على مهل بطريقة غامضة، فالعالم لن يخلو من المغامرات الغريبة ويجب أن يظلّ مليئاً بالمتغيّرات. صرفتهم وراقبتهم ينتشرون في كلّ بقاع الأرض قبل أن ترتفع ثانية إلى السماء.

بعد أن انتهى عمل آلهة الشمس تركتهم برعاية الروح الكبرى «بيامي» الذي هو عقل الحياة وذكاؤها. قام بيامي بمنح جزء من قواه العقليّة للطيور والحشرات والزواحف والأسماك والحيوانات وهذا القليل الذي وهَبوه هو ما يُعرف بالغريزة. ولكن بيامي لم يسعد بذلك فهو يريد لعقله كلّه أن يوضع في قالب فيه حياة. طلب بيامي من يهي أن تمنحه هيئة يظهر بها على المخلوقات التي أبدعتها. فكّرت إلهة الشمس بهيئة تليق بالرّوح الكبرى، فظهوره على هيئة أي من الحيوانات سيقلّل من شأنه ويجعله صغيراً غير محترم في نفوسها.

من سلسلة عمليات فكرية، مضافاً إليها ذرّات ميكروسكوبية من الثرى وتشكيلات من دم وغضاريف وأوتار وبشرة وتلافيف دماغ، صنع مخلوق ينتصب مستقيماً على قائمتين وله يدان صمّمتا لتمكّنه من استعمال السلاح والآلات، وفوق كل ذلك له عقل يستطيع أن يصغي لخلجات الرّوح. هذا المخلوق البشريّ، أكبر الحيوانات جميعها، قد أُعِدّ ليكون وعاءً للقوة العقلية

وللرّوح الكبرى. صنع هذا المخلوق بسرية كبرى. لم تره أيّ عين، فقد استنفدت الدقائق الأخيرة لفعل الكون في صنع آخر عملية خلق عظيم. عمّ العالم الظلام والحزن على غياب الروح الكبرى، عمّت الفيضانات الأرض فلجأت الحيوانات إلى كهف عال في الجبال. وكان من وقت لآخر يتقدم واحدهم إلى مدخل الكهف يستطلع ما آلت إليه حالة هذه الفيضانات، إلاّ أنّ شيئاً واضحاً لم يكن ليُرى، فقط جرف المياه تحت سماء لا شمس تشعّ عليها.

ذهبت «غوانا»[٣] الأكثر حكمة بين الزواحف تستطلع بنفسها، ولكنّها عادت مسرعة ذاهلة، لقد رأيت شيئاً مستديراً ذا ضوء شديد اللمعان كالقمر يرقد خارج الكهف، بل هو الكانغارو، قال النسر. وصمت الغراب وانتحى في شق صخرة لا يكلّم أحداً عن مشاهداته، قالت الفأرة بشجاعة : أنا سأجلو السر، وحبت بحذر ولكنّها عندما عادت لم تستطع الكلام، كانت الحيوانات تتقدم وحدة تلو الأخرى نحو مدخل الكهف وتتطلّع إلى الشيء الغريب الذي يقف في وسط الضوء وتعود ذاهلة إلى أماكنها. دارت مناقشات كثيرة بين الحيوانات، فالجزء الصغير من عقل بيامي الذي يمتلكه كلّ منها تعرف على الجزء البسيط من العقل الكلّي الذي كان مغلفاً باللّحم خارج الكهف.

دام الليل طويلاً لا ينقشع لمدّة لم يستطع أحد تحديدها في شروق أو غروب. بدأت الحيوانات تحسّ بالجوع، فقتل النسر جرذاً وأكله. مزّقت الحيوانات الكبيرة الأخرى الصغيرة وقطّعتها قطعاً صغيرة والتهمتها. سمع بيامي تلك الجلبة فترك الجبل حزيناً كَوْن الحيوانات اكتشفت المتعة التي تتحقق لأحدهم بموت الآخرين. وعند رحيله أفاضت يهي نورها على العالم، فخرجت الحيوانات التي بقيت على قيد الحياة من الكهف وتجمعت على رأس التلة. هناك على قبّة سقف العالم ظهرت الروح الكبرى معربة للمخلوقات عن حقيقتها. هناك وقف بيامي أمامهم على هيئة إنسان، إنسان يسيطر على كل المخلوقات، لأن له روحَ بيامي وذكاءه في جسد بشريّ.

وفيما هو يجوب في الأرض، أحسّ «إنسان»، الذي له عقل بيامي، بالوحدة. مشاعر غريبة سَرَت في جسده، رغبات غامضة اعترته. أحسّ بالحاجة إلى رفيق يشاركه جمال العالم، فأخذ يبحث عن واحد دون جدوى، قصد الكانغارو والومبات، الحيّة والعظاية، العصافير والخفافيش، السمك والحنكليس، الحشرات وديدان الأرض ولكن دون أيّ جدوى. كان يشعر بميل نحو هذه المخلوقات، فجميعها كانت تحبّ بيامي ولكن ما عندها من عقله لم يكن كافياً لإرواء ظمأ روحه. اتّجه نحو الأشجار والأزهار والأعشاب، فتنه جمالها، إلاّ أنّ تأثيرها لم يتعدّ حواسّه، فروح بَيامي لم تكن موجودة فيها، أزهار نبتة الواراتا[٤] المشتعلة بجمال وغزارة ألوانها، القصب بذهبيّته الفاخرة، شجرة الاوكاليبتوس بجمال قشورها الفضيّة وعبير وريقاتها، أمور أفرحت بصره وأذكت شمّه، استنشق عبيرها فتغلغلت عميقاً في أنفاسه ولكن روحه لم تعرف الإستقرار.

حلّ المساء فاضطجع لينام قرب شجيرة تُعرف باسم «ياكا». كانت الأحلام الغريبة تقلقه طوال الليل. أحسّ وكأنّ رغباته على وشك أن تتحقّق. عندما استفاق كانت يهي قد غمرت السّهل بشعاعها وبدا له أنّ أشعّتها مسلّطة على قصلة زهرة نبتة الياكا، أمعن التحديق بالنبتة فأخذته

الدهشة، لقد سمع لهج أنفاس عميقة، تطلّع حوله فأدهشه تجمّع حيوانات العالم كلّها هناك في السهل وقد خيّم في الجوّ شعور توقع حدوث أمر ما عظيم. أعاد التحديق بالنبتة، رآها تتغيّر، عنق الزهرة بدا أقلّ طولاً وأكثر استدارة، أطراف بَدأت تتكوّن. ومن عميق دهشته علم «إنسان» أنّ الشجرة كانت تتحوّل إلى مخلوق ذي قائمتين على شاكلته، إلاّ أنّه كان مختلفاً، الأطراف أكثر نعومة ورخاصة. ثديان مستديران تشكّلا أمام عينيه، وغطاءً مهيباً للرأس الحسن التشكيل كان قد تكوّن. رفع «إنسان» يديه نحو المرأة فصافحتهما وخطت باعتزاز عبر القاعدة العشبية للشجرة. أمسكها «رجل» بيديه ومعاً تفحّصا العالم المنتظر ... رقصت الحيوانات فرحاً، ثم ركضت مبقية على مسافة منهما، كانت سعيدة لأن وحدة «إنسان» قد انتهت، العزلة المضنية انتهت لتبدأ مسؤولياته وواجباته. أتت المرأة على مهل إلى الحياة، واتّحدت بزوجها. اصطاد هولها طعامها وبحث لها عن مأوى. أظهر لها حبّاً ولطفاً، أمور هي ثمرة الرّوح، علّمها أسماء الحيونات والطيور وطرق عيشهم، تعلّمت أن تحبّه وتعمل لأجله، أن تكون الجزء الآخر الذي لا غنى عنه لتحقيق السعادة والاكتفاء.

ابتسم بيامي وقال : «عندما أريد أن أكشف نفسي للأشياء الصغيرة التي خلقتها، سوف أكون سعيداً جداً لأظهر لهم على هيئة إنسان».

بقي بيامي على الأرض لمدّة طويلة على هيئة إنسان، أحبّ العالم (تيا)، الذي قيل أنّه كان فيما مضى قطعة من الشمس ذاتها، وفي ذات يوم وفيما المخلوقات مجتمعة حوله قال : آن الأوان أن أترككم يا أطفالي.

عندما كان العالم صغيراً كنتم بحاجة إلي، أمّا الآن فقد اكتمل نموّكم وقد صار باستطاعتكم تدبير أموركم.

وتعتبر أسطورة «زوجات نارونداري Naroondarie Wives» من أكثر الأساطير التي تنظم العلاقات بين البشر والقوى الغيبية، فهي تتعرّض لمسألة الثواب والعقاب، وتعرض لمفهومي الخير والشر، كما أنّها تشترك والكثير من الأساطير القديمة في تسخير قوى الطبيعة لمعاقبة المذنب وإثابة الصالح. يلاحظ أيضاً مقاربة لبعض ما جاء في الأساطير الدينية (الشجرة المحرمة في أسطورة أدم وحوّاء يقابلها السمكة المحرمة في الأسطورة الأبوريجينية، المرأة التي تحمل بذور العصيان هي ذاتها في الأسطورتين، التطهّر بالماء الوضوء، العمادة، يقابله غوص المرأتين إلى قاع البحر. هذه المقاربات تثير في النفس بعض التساؤلات. تُرى أتكون الأسطورة الأبوريجينية قد تأثرت بالثقافة الأوروبية الوافدة وداخلها بعض التحريف، أم أنّها النفس الإنسانية هي ذاتها في كلّ زمان ومكان تتفاعل وتنفعل على شكل مماثل عندما تتعرّض لظروف متشابهة ؟ سؤال أتركه للقارئ ليقول رأيه بعد إطلاعه على ما جاء في الأسطورة :

تقول الأسطورة إنّ نارونداري إسمٌ يُطلَق على العديد من الأبرار في كثير من قبائل السكّان الأصليّين الأستراليين The Aborigines ونارونداري كان رجلاً باراً تقيّاً له حظوة عند الروح العظمى بيامي Bayamee ومساقاً بإرادتها نزح عن شمال أستراليا واستقر في الجنوب عند

شواطئ بحيرات الكسندرينا والبرت. وعندما قاربت رسالته على نهايتها اختار تلّة شبه جرداء لتكون مسكنه الأخير على الأرض بانتظار أن تناديه الرّوح العظمى ليأخذ مكانه في السماء بين الرفاق العظام الذين سبقوه إلى هناك. وفي إحدى رحلات صيده، لفت نظره زنبقتان بريّتان طريّتا الأغصان تتمايلان بدلال مع هبوب الرّيح الجنوبية. لقد رأى نفسه مشدوداً إليهما فوقف يتأملهما ثم ما لبث أن طرق سمعه لحن غريب ينبعث منهما، كان لحناً كئيباً فيه لوعة.

علم نارونداري أن فتاتين محبوستين (مرصودتين) في نبتتي الزنبق. فأثار أنينهما شفقته. قال في نفسه لا يضيرني أن أفك أسرهما ولا يخالف عملي هذا ما هو محظور عليَّ من معاشرة النساء ... أمر الزنبقتين بفك أسرهما فبرز من قلبهما فتاتان هما آية من آيات الجمال. لقد بهر جمال تكوينهما وسحر نظرتهما الرجل فوقع أسير حبّهما وقرّر الزواج بهما فقال : ها أنا قد وهبتكما الحريّة، فهل تتزوّجان بي ؟ ... وبدل أن يكمل طريقه لإتمام رحلة الصيد، قفل راجعاً بهما إلى بيته، وسألهما الجلوس، وأعطاهما شيئاً لتأكلاه. بعد انتهائهما من الطعام راح يتلو عليهما القوانين والعادات المتبعة بين القبائل، صحيح أن بعض هذه العادات متطرّفة جائرة ولكن لا مفرّ من سلوكها لأنها في النهاية تخدم المصلحة العليا. منها مثلاً أن لا يُسمح للمرأة أن تنظر إلى الرجال وهم في مرحلة البلوغ، أو تقديم أيّ شراب لهم، كما أنّه لا يقدم لهم لحم الكانغارو أو الايمو أو سمك «البوندي» و«التشيري»، وخصوصاً ذلك النّوع الفضّي المُسمى «التيكوري» وحذّرهما قائلاً : لا يُسمح لأيّ امرأة أن تأكل هذا النّوع من السمك وإلاّ كان عقابها الموت.

كانت الأيّام تمرّ وبمرورها تكتسب السيدتان خبرات جديدة، كما بدأت تختلج في نفسيهما كلّ الميول والغرائز الأنثوية. وبدا نارونداري قلقاً لهذا التطور الذي ينذر بقيام صراع بينه وبين زوجتيه. لذا لم يعد يسمح لهما بالبقاء في البيت وحدهما، بل كان يطلب منهما مرافقته في جميع رحلات الصيد التي عليه القيام بها.

حدث أنه في احدى المرات، وفيما هم يصطادون في بحيرة ألبرت، كان هو في قاربه، بينما كانت المرأتان تخوضان في الماء القليل العمق عند الشاطئ تصطادان السمك بشبكة مصنوعة من ألياف الأشجار، ولسوء حظهما علقت في الشبكة ثلاث سمكات من ذوات اللون الفضيّ الجميل من نوع «تيكوري». نحتا السمكات جانباً وغطتاها بالأعشاب والألياف ثم عادتا لإتمام عملهما. لقد كانتا ممتلئتين بفرح غامر إلى درجة أنستهما التفكير في ما تعملان. وإذ أعيا الثلاثة التعب فقرروا العودة إلى البيت. وإذ هم يتهيأون للرحيل، نظرت المرأتان إلى البحيرة فرأتا عمود دخان يتصاعد في السماء الصافية، فاستدعتا زوجهما ورئيسهما نارونداري. علم نارونداري أن «نبوللي» (الروح العظمى) يدعوه لزيارته وراء النهر... فقام يلبي الدعوة. بعد أن اطمأنت الزوجتان إلى ابتعاد الرجل إلى ما وراء النهر، اتجهتا فوراً إلى كومة الأعشاب والألياف وأخذتا ما كان مخبأ تحتها من كنز ثمين. وقفتا تتأملان السمكات وتقلبانها مرات ومرات بإعجاب شديد. ثم قفلتا مسرعتين إلى البيت، وما أن وصلتا حتى بدأتا بسرعة اشعال نار من قشور شجر البلوط. وعندما تم احتراق الحطب وأصبح جمراً أحمر جميلاً، وضعتا السمكات بالقرب من النار بعد أن وضعتا طبقة من العشب لهدف حفظ المادة الدهنية الضرورية للطبخ. ثم صنعتا من قضيبين

رفيعين جافين ما يشبه الملقط، وبحنكة خبير مدرب، أخذتا جمراً من النار، ووضعتاه فوق السمك... كانت المادة الدهنية في أثناء ذلك تذوب ويسمع لها هسيس.

سمع نارونداري هسيس الدهن وقال لنبوللي: «هلاّ سمعت ذاك الهسيس؟ كأن امرأة أو بعض نساء يطبخن السمكة المحرمة!... لا يجدر بي أن أقضي الليلة هنا. يجب أن أعود قبل غروب الشمس... أما المرأتان فقد جلستا بعد طهو السمك في أعلى التلة ليتسنى لهما استكشاف المنطقة، حتى إذا تبين لهما قدوم شخص ما، تقومان بتخبئة القسم المتبقي من السمك كيلا يكتشف أمرهما. جلستا تحت أشعة الشمس المشرقة تأكلان وتتحادثان بغبطة عارمة عن مدى تمتعهما بهذه الوجبة الشهية.

ـ حقاً إن الرجال دهاة، يعرفون أي الأطعمة أكثر جودة وألذ طعماً، ويضعون قوانين لحرماننا منها ليستأثروا هم بها. ولكنهما بعد حين أفاقتا إلى رشدهما وأدركتا ما يمكن أن يجلبه عملهما عليهما. لقد امتصت الأشجار والأعشاب رائحة التيكوري واكتنزتها ... «يجب أن نترك المكان. لا يجدر بنا البقاء هنا وتعريض نفسينا لاستجواب سيدنا ومولانا. فلنهرب قبل أن يحل علينا غضبه.

ـ بل نبقى ونواجه غضبه... فخير لنا أن نبقى هنا ونعاد ثانية إلى نبتة الزنبق، من أن يحل بنا عقاب أشد وأدهى في حال قبض علينا أثناء هروبنا.

ـ تعالي قالت الكبرى. لا وقت لدينا للتردد، بإمكاننا الذهاب إلى أرض أخرى غريبة، وهناك نسعى لكسب عطف «موكنبولي» فنصبح زوجتيه عندها لا يستطيع أحد أن يمنع عنّا حريتنا».

هكذا وبصمت مطبق جمعتا حزمة كبيرة من القضبان وحملتاها الى ضفة البحيرة، ربطتاها إلى بعض بألياف الأشجار بحيث تكون لهما ما يشبه الزورق. حملتاه إلى الماء وجلستا فوقه وجدفتا حتى بلغتا الضفة الغربية لبحيرة البرت ونامتا في المكان الذي سميّ فيما بعد بـ "T.R.Bowman". هذا ما حدث للمرأتين خلال الليل. أما نارونداري فقد عاد متأخراً عند المساء. لقد كان على بعد مئة ياردة أو أكثر عندما صعقته رائحة دهن التيكوري. تأكد له أن هاتين الغبيتين قد أكلتا السمكة المحرمة، ناداهما فلم يسمع إلا نعيب البوم وما نعيبه إلا دليل شؤم... المجرمتين... هربتا... أوقد ناراً وجلس يفكر بالفعل الشنيع الذي اقترفته زوجتاه. أي عذر سينتحل ليبرر به نفسه أمام الروح العظمى لاطلاقه هاتين المرأتين من سجنهما الذي فرضه عليهما الضحية السابق «الروح الرفيقة» Spirit Native Companion. أي نوع من القصاص يجب أن يفرض عليهما؟!... قبل أن أقرر يجب أن أجدهما أولاً.

اضطجع نائماً. استفاق قبل شروق الشمس، أخذ سلاحه "Plonggee"(*) المعد لضرب الخطاة الذين يتمردون على تعاليم القبيلة. وهو سلاح هيء خصيصاً ليجلد به المذنبون، وروعي عند انشائه أن يحدث ألماً شديداً وموتاً بطيئاً، لكي يتاح للمذنب وقت للتفكير والندم على سوء فعلته. وأخذ أيضاً قذيفته «البومرينغ» التي هي قذيفة مجوفة، موزونة بدقة بحيث انها تعود مباشرة الى راميها بعد بلوغ غايتها، ورمى بجلد السنجاب حول كتفيه، وشرع في رحلته: نزولاً، نحو شاطئ البحيرة. كان في أثناء سيره يتفحص المكان باحثاً عن آثار أقدام. عندما وصل إلى البحيرة رأى هياكل أسماك التيكوري. الآن تأكد له سبب غيابهما. قصد زورقه وأبحر

عبر البحيرة. طاف حول المكان بين الشجيرات النامية على ضفة النهر، فرأى بقايا النار والمكان الذي اتخذتاه ملجأ لمبيتهما تلك الليلة. ثم راح يقتفي أثرهما إلى أن قاده الأمر إلى برزخ من الأرض يقع ما بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي في «انكاونتر باي» جنوب استراليا. وعلم أيضاً أنهما لم ترحلا إلا قبل ساعات قليلة من وصوله. لذا فكر بأخذ قسط من الراحة يعاود بعدها اكمال مهمته.

بدأ عمله باكراً فور بزوغ الشمس. بحث في كل اتجاه، ولكنه فشل في العثور على أثر لهما، وقف حائراً لا يستطيع أن يقرر أي الجهات يسلك، بعد لأي زارته روح الأمومة الكبرى، الملاك الحارس، الذي يسهر على سلامة الناس الأبرار ويبقى إلى جانبهم دائماً ليحذرهم حين يلوح صوبهم أي خطر. استجاب نارونداري للنداء واستعد للمصاعب التي سيلقاها في رحلته. كان أولها ملاقاته للرجل القاسي الفظ الطباع الذي تحوّل الى وامبات وفيما هو يتجول بين كثبان الرمال وحيداً، لمحه نارونداري عن بعد فرماه بسهمه فأصاب منه مقتلاً، طعنة في القلب مباشرة، استل السهم فتدفق الدم غزيراً فوق الرمل الأبيض. التقط نارونداري الومبات وحمله الى خيمته وربطه بوتد، وعندما همّ بالجلوس تذكر أنه نسي سهمه في المكان الذي أطلق فيه على الومبات. عاد ليحضر السهم فرأى رجلاً منبطحاً على الأرض يتنفس كمن في سبات عميق فارتأى أن يترك له سهمه. قد يكون بحاجة إلى سلاح.

سار متئداً بين الأشجار وصنع بضع سهام يائدية. وعاد مرة ثالثة الى مقره، ومن هناك وقف يتأمل الرجل الذي انبثق من دم الحيوان: ما عساه يكون!! .. إنه بحكم كونه خادماً للروح العظمى، يعرف أن هنالك أرواحاً ورجالاً أشراراً يتلبسون الأشجار والنبات، أمّا أن تحلّ الروح في دم حيوان فأمر لم يعهده من قبل!!.. من يدري.. ربما كان الأمر نذير شؤم!!... لذلك عاد يستطلع المكان عله يجد ما يدله إذا كان هذا الشخص عدوّاً أو صديقاً.. ربما كان صديقاً أرسلته الروح العظمى لمساعدته في البحث عن زوجتيه. عند وصوله الى المكان كان الشخص قد اختفى. تطلع حواليه عله يرى آثار أقدام فلم يحظ بشيء. وهكذا تأكد له أن الشخص عدو، فالصديق يترك دائماً آثار أقدام. هذه حقيقة يؤمن بها كل السكان الأصليين وقال في نفسه: يجب أن أبقى حذراً. وهكذا بقي طوال يومه مترقباً يتحاشى الظهور قدر المستطاع.

في اليوم التالي، جلس نارونداري على قمة تل من كثبان الرمال، محدقاً مرة إلى الجنوب وثانية إلى الشرق وثالثة غرباً ثم شرقاً، علّه يهتدي إلى أي إشارة تساعده على تحديد وجهة سيره، إلا أنه ما لبث أن سمع قهقهات. لم تكن القهقهات قهقهات فرح أو ابتهاج، انما كانت تحمل في طياتها معاني الهزء والاستخفاف. هب واقفاً يستطلع مصدر الصوت، فتراءى له منظر جمَّد الدم في عروقه وأسرى رعشة قشعريرة في عظامه. لقد انتصبت أمامه قوس الشر المعادية لروح الخير. وبسرعة استل نارونداري سلاحه، قبض عليه بشدة، واعتدل في وقفته، متهيئاً لرشق الصورة المتقدمة. على بعد مائتي ياردة من نارونداري وقف «باريمباري» الرجل الذي كان مسجوناً في جسد حيوان الومبات. طلب منه نارونداري أن يدله على مكان الزوجتين إلا أن الرجل أجاب:

ـ كلا .. لن أخبرك.. أنت غريمي... لقد انتظرت طويلاً لأظفر بك... إلا أن وجودك الدائم بين

الناس، وتنقلك المستمر في طول البلاد وعرضها جعل الأمر صعباً عليّ ومكن اتباعك من قوى الخير أن يمسكوا بي ويحبسوني في جسم حيوان الومبات إلى أن أتيت أنت وأطلقت سراحي. الآن يجب أن تموت قبل وصولك الى السماء.

ـ كل الرجال الأولياء الصالحين أعطوا حق الذهاب إلى السماء من غير أن يعانوا تجربة الموت.. وها أنت تدعوني نسيبك... فلماذا تخالف إرادة قوى الخير أمثال «هووك» و «برووليجي» و «بنوونجي»؟!... ألا يسرك أنني أطلقت سراحك في حين كان بإمكاني أن أذبحك؟!... لقد أتحت لك فرصة أن تستعيد شكلك الطبيعي الذي أنت عليه الآن... ألست سعيداً بذلك؟.

تابع نارونداري مسيره وفي اعتقاده أنه قطع مسافة كبيرة. إلا أن غناء غريمه كان لا يزال يضرب سمعه، فظن أنه يتبعه. وقف وتطلع حوله فتبين له أنه لا يزال في مكانه، لم يتقدم بوصة واحدة. تطلع فرأى الرجل يرقص ويلوح بحربته متحفزاً جاهزاً كمن يستعد للإطلاق. فوقف ينتظر ما قد يكون من أمره. فجأة انطلق السهم بسرعة البرق. لقد كان من الممكن أن يصيب منه مقتلاً لولا أن نارونداري لحظه وتفاداه في الوقت المناسب، واقتصرت الإصابة على جرح في فخذه، الأمر الذي جعل غريمه يظن أنه نال منه، فراح هذا الأخير يرقص طرباً بفعلته.

أخذ نارونداري سهمه، أثبته إلى القوس، أسنده إلى كتفه، وككل المحاربين الأشداء تمتم صلاة متوجهاً بها إلى الرمح، وبكل ما أوتي من عزم وتركيز وبسرعة البرق الخاطف انطلق السهم ليدخل جسم بارمباري ويخترق قلبه، فسقط صريعاً على الأرض مضرجاً بدمه. تنفس عندها نارونداري الصعداء، ثم عاود البدء في إتمام رحلته. سار وسار طويلاً غير آبه بما يحيط به إلى أن أحس روح «رتش إر رووكيتي» الذي بدا وكأنه كان إلى جانبه طوال الوقت. وإذ نظر حوله رأى أنه لا يزال في مكانه لم يتقدم خطوة واحدة. فقال في نفسه: لا بد أني أواجه عدواً خطيراً، ولعله من تلك الفئة التي يبقى تأثيرها فاعلاً رغم مفارقة روحها للجسد وهي لذلك تمنعني من التقدم. جلس يأخذ قسطاً من الراحة قبل البدء بمحاولة ثانية للرحيل. وفي أثناء ذلك، لاحظ أن جميع الطيور والحيوانات التي تقترب من الجثة تمسي لصيقة بالمكان لا تستطيع الابتعاد عنه. فخلص إلى قرار: ان الطريقة الوحيدة للخلاص من هذا المأزق هي في حرق الجثة. نهض وجمع كومة كبيرة من الأعشاب وأغصان الأشجار ووضعها الواحدة تلو الأخرى الى أن تم له كومة تساوي ضعفي طوله. ثم أخذ الجثة ووضعها فوق كومة الحطب ثم أخذ جذعي نبتتين من نبات الزنبق البري. فأحدث ثقباً في احداها، وفي هذا الثقب وضع طرف النبتة الثانية وعالجهما طويلاً بين كفيه حتى تم له الحصول على اللهب. عند ذلك أشعل النار وأحرق جثة البارمباري، ثم بدأ رحلته للمرة الثانية.

سار وسار طويلاً، ثم توقف ليرى أين وصل فاكتشف أنه لم يزل في المكان نفسه، فقال: يجب أن أبحث جيداً، علّ هنالك شيئاً من أثره. التفت حوله فرأى دمه المتجمد لا يزال على الأرض، فأشعل ناراً أخرى، ولدى انطفائها، حرك الرماد الحار حتى ضاع كل أثر للدماء. ثم ابتدأ رحلته فكان تقدمه سريعاً لا تعيقه أية عوائق. لقد قطع سبعين إلى ثمانين ميلاً في الساعة. وما أحسّ بنفسه إلا وهو في مواجهة نهر «المورای» يجري مندفعاً نحو المحيط.

كلم الروح العظمى سائلاً إياها أن تجعل عبوره ممكناً. استجيبت صلاته والتحمت الأرض

وقام جسر وصل ضفتي النهر، وعندما وصل الضفة الأخرى، رأى آثار أقدام زوجتيه، اقتفى أثرهما واهتدى إلى مكان مبيتهما تلك الليلة، ولاحظ أن في الرماد البارد يرتسم شكل سمك التراري المبقع ـ هذا النوع من السمك محرّم تحريماً باتاً على النساء ـ اعتراه حزن شديد وأسف لفعلة زوجتيه، لقد تأكد له الآن، وبالبرهان القاطع، وقوعهما بالخطيئة المميتة، فخيمت كآبة ثقيلة على صدره. جلس إلى جانب خيمته وبكى بمرارة خطيئة زوجتيه الشابتين. لقد أحب هاتين الغريرتين حباً كبيراً. وراح يفكر كيف أنه حررهما من العبودية ومنحهما نعمة العيش كباقي البشر. وهو أيضاً من أوكلت له الروح العظمى رسالتها لتعليمها للناس وفوضته معاقبة مخالفيها. لذا فقد حق عليهما العقاب الذي يجب أن يكون أشد من الأول.

تردد في أمر معاقبتهما إلى حين، ثم ما لبث أن حزم أمره، يجب أن يكون عقابهما قاسياً فتظلا مثلاً لكل من تخول له نفسه مخالفة القوانين على مدى الأجيال. لقد صلى للروح العظمى علها تسامحهما ولكن الاجابة كانت: على كل حي أن يؤخذ بجريرة أعماله. وهكذا اعتزم أن يتتبعهما لتنفيذ العقوبة بهما. وباقتفاء اثرهما أوصله الأمر إلى ما يعرف اليوم بـ«بورت إليوت» جنوب استراليا. ووصل الى حيث حطت رحالهما قبل يومين من وصوله. تفحص الرماد فرأى أنهما طبختا أصدافاً وأسماكاً وحلزوناً بحرياً.. فبكى ثانية، وكان بكاؤه بقرب صخرة كبيرة. لقد بكى كثيراً ذلك النهار وانسابت دموعه نحو البحر. وقد ذهبت سيرته شهيرة على مدى الأجيال، وما زال حتى اليوم يشار الى المكان ويقال: هذا هو المقام الذي بكى عنده ناروندارى بحرقة أسفاً على زوجتيه المغرورتين العنيدتين..، هذا المقام الذي ينبع الآن ماء عذباً منعشاً هو حصيلة دموع مرة مالحة، وعصارة قلب كسير كانت الثمن الذي دفعه ناروندارى للوصول إلى أرض «النفوس الخالدة».

بعد أن أمضى ناروندارى ليلة قلقة مضطربة، استفاق باكراً وابتدا رحلته مسرعاً في سيره إلى أن وصل ما يعرف اليوم بـ«فيكتور هاربر». جلس يأخذ قسطاً من الراحة مسرّحاً نظره في الأفق الغربي، فتراءتا له، فبكى مرة أخرى. بكى لأنه في رؤياه عرف ما سيؤول اليه مصيرهما، ولأنه هو الذي سيكون مسؤولاً عن تنفيذ ما سيحل بهما من ويل قبل وصولهما إلى أرض النفوس الخالدة، جزيرة الكانغارو. كان صراعاً داخلياً حاداً يدور في أعماقه، فطبيعته السمحة المحبة كانت تتمنى لهما السلامة وتأمل وصولهما الى الجزيرة حيث بإمكانهما العيش بحرية وسلام متحررتين من أي قيود أو عقاب، في حين كان الواجب يدعوه للحاق بهما ومنع تقدمهما.

أما المرأتان فكانتا قد وصلتا إلى مكان مطل على الجزيرة التي كانت في زمن حدوث القصة مرتبطة باليابسة بواسطة برزخ ضيق إلا أن عاصفة عاتية غمرت البرزخ وقطعت ما كان من اتصال.

اقترب ناروندارى من المرأتين مسافة كافية لتتبع تحركاتهما. فهو لا يبعد عن مكان تواجدهما إلا مسافة أربعة أو خمسة أميال... ها هو يلحظهما واقفتين على صخرة تتأملان الجزيرة الوعد.. كان ناروندارى يرقبهما وهما تنصبان الخيمة وتقيمان النار، فيما كان هو ينتظر الرسالة الثانية من الروح العظمى التي ستملي عليه ما يجب فعله لتنفيذ العقاب بالخاطئتين.

عند منتصف الليل حمل إليه الرسول «كرولتوثمي Kroolthumie» الأمر والذي يقضي بأن

تترك المرأتان حتى تعبرا الطريق المؤدي إلى الجزيرة ـ الذي هو بمثابة جسر يعبره الحجاج الذين يقصدونها ـ ولدى وصولهما الى منتصف الطريق، يبدأ ناروندراي بإنشاد أغنية الريح : أولاً يجب أن يغني أغنية الريح الغربية الغاضبة لتهب وتحضر مياها من بلاد غامضة خفية، وتجعلها تدور بحقد غاضب. بعدها يغني أغنية الريح الجنوبية التي تدور وتدور وتجلب مياهها من بلاد مجهولة. هذا ما سيجعلهما تتمنيان أن تعودا إلى اليابسة. عندها يغني أغنية الريح الشمالية فتعلو المياه وتدور متلاطمة حتى تنهك قواهما. عندها، يجب أن يأمر بأن تتحولا إلى صخرتين.

استفاق ناروندراي باكراً واقترب من مكان وجود المرأتين وجلس ينتظر بدء قيامهما برحلة الموت.

قصدتا الحارس وسألتاه إذناً بالمرور فتم لهما ما أرادتا.. سرهما الأمر فأخذتا تثرثران فرحتين لاقتراب دنوّهما من الجزيرة الوعد. والأهم من كل شيء هو تحررهما من الخطيئة التي اقترفتاها. لم يدر في خلدهما أنها ليست سوى لحظات وينزل بهما عقاباً أشد من الموت جزاء غرورهما وتمردهما على ارادة الروح العظمى.

اقترب ناروندراي من الشريط الأرضي الذي يقود إلى الجزيرة. وجلس في مكان عال يمكنه من متابعة تحركاتهما. وعندما وصلتا إلى منتصف الطريق بدأ يغني أغنية الريح. انزلّي من عليائك أيتها الريح المعظمة. اركضي مسرعة وامنعي هروبهما.. يا مياه الأعماق!... تعالي كثيفة عارمة.. وجاءت الريح الغربية مندفعة بغضب جارف، في حين كانت المرأتان تصارعان بجهد في وجه العاصفة. إلا أن المياه كانت تعلو وتعلو وتغمر اليابسة من حولهما. ثم غنى ناروندراي أغنية الريح الجنوبية. فهبت ريح وحملت مياهها من المجهول مرتفعة كأنها جبال صغيرة، واطبقت عليهما تتجاذبهما وتتقاذفهما كالقارورة الفارغة. حاولتا المقاومة بكل ما استطاعتا من جهد. ولما اعياهما الأمر، وفقدتا الأمل بالوصول الى مبتغاهما..، نادتا : إننا آتيتان!!.. إننا آتيتان!!.. لقد أدركتا أن الروح العظمى تعارض وصولهما الى جزيرة الكانغارو. فاستدارتا وفي نيتهما العودة الى اليابسة. إلا أن "Walkundmia" كان حاضراً للقيام بواجبه وتلبية نداء ناروندراي القاضي بانزال العقوبة بهاتين الخاطئتين. كان عنف الصراع قد أخذ منهما كل مأخذ فسقطت مقاوتهما وغرقتا، وغاصتا إلى الأعماق.. وفجأة سكنت الريح، وصفا الجو... فبكى ناروندراي بمرارة رغم ايمانه بأنه لا يعمل إلا ما يتوجب عليه تجاه الارادة العظمى. وشعر بصدق أنه أحب هاتين المرأتين بكل أخطائهما وعيوبهما. وهمس صوت له: أعط أمراً بتحويل جسد هاتين المرأتين الى صخرتين لتكونا شاهداً وتحذيراً لكل النساء كي لا يأكلن الطعام المحرم مطلقاً.

تكلم.. وكانت عباراته تردداً لما أمر به.. وانتصبت في المكان صخرتان لا تزالان حتى يومنا هذا تبدوان للناظر من بعيد كما تبدو السفن العابرة. وقد عرفتا لدى السكان الأصليين قبل حصول الاستيطان الأبيض للجزيرة باسم الصخرتين الأختين حيث كان يؤم كثير من الحجاج الأتقياء للتأمل والاعتبار بحكمة المعلم الأكبر ناروندراي. ورغم البعد الزمني ورغم التحولات

الاستيطانية التي حصلت للبلاد فإنهما ما تزالان رمزاً مقدساً للبقية المتبقية من السكان الأصليين، وهما لا تزالان تحملان اللقب ذاته «الصخرتان الأختان».

بعد انقضاء الأمر، وبعينين تملأهما دموع الحسرة والأسى، وبقلب أفطره الحزن، أمر المياه بالتراجع ليتسنى له العبور الى جزيرة الكانغارو.

وعند الجانب الشرقي للجزيرة، تفيأ ظل شجرة صمغ كبيرة، واستراح حتى أذنت الشمس إلى المغيب، فاتجه غرباً وغاص في مياه البحر العميقة، ومكث هناك وقتاً طويلاً يبحث في الأعماق عن روحي زوجتيه حتى أنقذهما من القبر المائي البارد، وصعد بهما متعلقتين على جانبيه. وطار صعوداً صعوداً إلى أن وصل بهما إلى أرض الخلود لينضم إلى جموع الأرواح الطاهرة ليتطلع من عليائه، ليبارك ويشجع ويؤازر الكمنوكالدي ليستمر في حربه على قوى الشر محافظاً على طاعة وتنفيذ ارادة الروح العظمى.[٦]

في اسطورة أخرى بعنوان «زهرة الدم» قصة الصراع حول المرأة وفيها تنتصر الطبيعة للمرأة وتحيق الموت بتيرتلا الذي يريد أن يستأثر بـ «بروميل» رغماً عن ارادتها. وملخص الأسطورة أن فتاة تفر مع شاب تحبه من رجل يفرض عليها زوجاً فيتعقبهما هذا الأخير ويقضي عليهما وعلى وليدهما. إلا أن الطبيعة تنتصر لهما وينبت في مكان مقتلهما زهر جميل أحمر وعندما يزور المعتدي المكان ينتصب في السماء رمح، وفيما هو يحدق دهشاً في هذه الأزهار تنغرس الرمح في جسده ويرفع من رجليه. وفيما هو معلق في الهواء يسمع صوتاً يقول: أيها الجبان!.. يا قاتل النساء والاطفال!!.. كيف تتجرأ وتدوس قدمك مكاناً أصبح مقدساً الى الأبد بفعل الدم الذي سفكته؟!.. دم «الريس الصغير» وأمه وأبيه، دم جرى كالنهر وأزهر كما ترى الآن. ألا تعلم أنك لا تستطيع قتل الدم بقتلك الجسد؟!!.. أنت قتلت اللحم فقط لا الدم. دمهم سيعيش إلى الأبد يصنع الجمال في هذه السهول العارية. بحيرات الملح، هذا المشهد المدهش البراق هو دموع الأرواح التي أطربتهم بورليميل بصوتها العذب. هذه دموعهم المالحة التي ذرفوها يوم سلبت أنت دماء الحياة من أبناء قبيلتهم الغالية على قلوبهم. هنا ستبقى إلى الأبد شاهداً على ما فعلت يداك. شاهداً على الفعل الجبان الذي ارتكبت.

وإذ تلاشى الصوت انزلت الروح تيرتلا إلى الأرض تاركة الحربة مغروسة في جسمه. وعلى مرّ الأجيال تحول الرجل والرمح الى صخرة كشاهد دائم على عظمة وجبروت الأرواح. وهناك عند أقدام تيرتلا ينتشر زهر جميل أحمر هو تحفة السهول الغربية حيث بحيرات الملح التي أطلق عليها المستوطنون اسم Sturt's Desert Pea، ولكن القبائل القديمة كانت تعرفها باسم «زهرة الدم».[٧]

|

تناقض مجريات بعض الأحداث في هذه الأسطورة ما هو متداول في واقع حياة الشعب الابوريجيني. ومرد ذلك إلى الاختلاف الحاصل بين الحلم والواقع المعيش، إذ إن تفاعل الأمور يختلف اختلافاً كلياً بين العالمين كمثل ما هو حاصل في عالمنا حيث تفاعل القوى والطاقات داخل

العوالم الفضائية خارج مجموعتنا الشمسية تختلف عمّا هي عليه الحال في عالمنا. ويأخذ الأبوريجينيون في الحسبان ان العالم الماورائي يختلف في كثير من جوانبه عن الواقع المعاش، وهم يدركون أن نماذج الأساطير تحمل في طياتها الكثير من المبالغة والتطرف الذي لا يلائم الحياة الواقعية المعاشة.

ومما هو معروف أن في حياة الأبوريجينيين العملية لا وجود لسيطرة البطل الفرد ولا لتوارث أمجاد الفروسية، فلا وجود في عالمهم لشخص رئيس أو قائد أو محارب مميز. ولا يرفع أي رجل إلى مرتبة أعلى من الآخرين فيتولى عليهم، لا روحياً ولا معنوياً ولا حتى جسدياً. كل شخص هو انسان محارب متكامل بذاته له كغيره دور أساسي في القبيلة وإلمام داخلي تام بقوانين زمن الحلم. فقد تؤدي التناقضات الموجودة في زمن الحلم الى عداء بين القبائل، ولكن أن تغزو قبيلة قبيلة أخرى وتفرض سيطرتها عليها فأمر غير موجود. فقط أثناء الاحتفالات وعند ممارسة الطقوس يستطيع الرجال أن يلبسوا زي المحارب العظيم ويمثلوا دور البطل المنتصر القوي المبجل.

مفارقة أخرى تبرز في النص وهي مسألة الزواج. ففي هذه الأسطورة نرى سيطرة مطلقة من الرجل على زوجاته وعروسه الموعودة. هذا التفوق الذكوري غير موجود في العرف الأبوريجيني، بل إن تقاليدهم تسمح بفرار الزوجة مع عشيق، وللفتاة بالهروب والزواج دون موافقة الأهل. ففي العالم المعاش يحق لبروليمييل كل الحق أن تهجر ذابح الزوجات تيرتلا رغم إعلان خطوبتها له. وفي الحياة العملية أية علاقة زواج غير ناجحة يمكن أن تحل عكس ما تصوره لنا هذه الأسطورة.

بقي أن نعلم أن الأبوريجينيين في أول عهدهم تناقلوا حكايات «زمن الحلم» عن طريق شعائر كالرسم والغناء والرقص، وما هي في حينه إلا تخيلات كانت تتم تحت تأثير حالة من حالات اللاوعي والانجذاب. ففي مثل هذه الحالات تنشط القوة المخيلة وتطفو إلى منطقة الشعور ما يخبئه العالم من أسرار. وان الاستيطان الأبيض لهذه القارة بما حمله من ابادة وتهجير وإعادة توزيع للشعب الأصلي، أدى الى ضياع الكثير من أدبهم، وما بقي منه جمعه وأعاد كتابته مؤلفو الانثروبولوجيا البيض، إلا أن الأبوريجينيين من جهتهم لا يزالون يتوارثون هذا الأدب حيث توجد لهم أماكن تجمع فيحمله الأبناء عن الآباء والأجداد، ملقحاً بمرور الزمن بما حمله الأبيض المستعمر من قيم وأفكار، ويرى بعض الباحثين أن تدخل الحضارة الأوروبية قد دمر الوحدة الكلية واستمرارية المدلول التي يؤمن بهما الأبوريجينيون. إلا أن أمر هذا التدمير لم يعد له الأولوية المطلقة بين كتابهم الناشئين، فقد نشأ عندهم همّ أكبر هو، همّ اثبات الهوية والانتماء، أمر شغلهم عن التطلع إلى هذه الهارمونية التي حرص عليها الأجداد. ونحن إذ نقرأ أدبهم اليوم نأخذ بالحسبان أن هذه القصص والأغاني لم تترجم إلى لسان مختلف فقط، بل إلى نص ذي دلالة وسياق مختلفين أيضاً ونحن اليوم لا نستطيع أن ندعي فهم السبب الخفي أو العلاقة

الروحانية وراء كل عمل أسطوري، ولكن من خلال هذه الأساطير نستطيع أن نتفهم خصوصية هذا الشعب ونتحسس ما يعتمل في وجدانه من عواطف ومشاعر متنوعة من خشية وحماسة وخوف وفرح وحزن. ومن خلال هذه الأساطير نستطيع أن نستشعر ونتعرف بشكل أكبر على الموروث الثقافي الأبوريجيني.

نجمة خليل حبيب
سدني ـ استراليا

هوامش :

(١) الآراء الاستنتاجية الواردة في هذه المقالة هي حصيلة قراءات عامة في الأساطير الأبوريجينية (عن اللغة الانكليزية). يسعفها الى جانب الرأي الشخصي، اطلاع عام على الكتب التالية:

(a) Wise Women of the Dreamtime, collected by K. Langloh Parke
edited, with commentary by Johanna Lambert, Vermont Rochester 1993.

(b) Marcie Muir, My Bush Book: (Sydney 1982).

(c) Paperbark, J. Davice & Others, (Queensland, 1990).

(d) A History of Australian Literature, Ken Goodwin, pp. 8,9 pu
Macmillan, London & others, U K.

(٢) Wombat ـ نوع من السناجب البيضاء المعروفة في الصحراء الاسترالية يختلف عن السنجاب الأميركي الذي يعرف بنفس الاسم بأن له ذنباً قابلاً للانقباض.

(٣) Gonna سحلية استرالية، ابوريجينية التسمية.

(4) Aboriginal Stories, A.W. Reed Reeds Book, 1995, (1994), Chastwo
NSW, pp. 11- 21.

(٥) سلاح بطول ثماني عشرة بوصة، ينتهي عند أحد الطرفين بكتلة بحجم كرة صغيرة، وينتهي طرفها الآخر بمقبض طوله حوالى قدم واحدة وسماكة بوصة.

(6) PaperBark, a Collection of Black Australian Writing, edited by Jack
Davis and others, UQP 1990, Queensland, pp. 19 - 32.

(7) Wise Women of the Dreamtime, collected by K. Langloh Parke
edited with commentary by Johanna Lambert, Vermont Rochester 1993.